مجلة الشرق الأوسط للنشر العلمي
المجلد (٨) العدد (٤)
الإصدار الثامن والعشرون
٢٠٢٥ (١-٧)

تحليل حكاية (من شابه أباه فما ظلم) للجاحظ على ضوء مفهوم التواصل الإظهاري الاستدلالي

د. سجى عمر عبد الحفيظ طعامنة

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ٦ سبتمبر ٢٠٢٥م

الملخص

سيتناول هذا البحث تحليل إحدى حكايات الجاحظ، وهي (من شابه أباه فما ظلم)، وتنبع أهمية هذه الدراسة في كونها تطبق منهجًا لسانيًا حديثًا على حكاية أو (مثل) قديم، وستتبع الباحثة المنهج التحليلي بإطاره العام، متخذةً من منهج سبيربر وولسون طريقًا تسير عليه، من خلال تحليل هذه الحكاية أو هذا المثل، مركزة على مواضع التشبيه فيه؛ للكشف عن الدور الذي جاءت به المنبهات السياقية في التصور والاستدلال؛ للوصول إلى مقصدية المخاطِب، وقد توصلت الباحثة إلى نتيجة مفادها: ساهمت المنبهات السياقية بما في ذلك عناصر التشبيه في مساعدة المخاطَب بتكوين افتراضات ذهنية من التصور والاستدلال، أسهمت في تحقيق مقصدية المخاطِب في الدائرتين الضيقة والواسعة (الابن / الباعة)، (الضيف والأب / الابن).

* المقدمة

تهدف هذه الورقة إلى دراسة أثر المنبهات السياقية بتكوين المخاطَب افتراضات ذهنية تمكنه من التصور والاستدلال؛ للوصول من خلالها إلى مقصدية المخاطِب، وستتخذ الباحثة من البرغماتية مدخلاً لمعاجة هذا الموضوع، من خلال دراسة المعنى الذي يوصله المخاطِب ويفسره المخاطَب وفق تأثير السياق الذي قيل فيه، وستحاول الباحثة أن تركز على مواطن التشبيه في هذه الحكاية، وقد قسمتها إلى دائرتين: الدائرة الواسعة وتمثلت بوجود ركني عملية التخاطب الرئيسين وهما (الأب والضيف / الابن)، أما الدائرة الضيقة فتمثلت في (الابن / الباعة).

وستقوم الباحثة بتحليل عناصر التشبيه كمنبهات إظهارية ساهمت في إيصال الصورة المثلى وتحقيق المقصدية التي يريدها المخاطِب، من خلال تسهيلها عمليات التصور

والاستدلال وفق نظرية الصلة؛ لتحاول أن تصل إلى دور هذه المنبهات في الاستدلال وتحقيق المقصدية.

ومن الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع عينه؛ رغبتي الملحة في تطبيق منهج لساني حديث (نظرية الصلة) وفق سبيربر وولسون على مثل يعدُّ من التراث القديم، وستحاول الباحثة أن تعرض للموضوع وفق محمورين: –

١– الدراسة النظرية: –

أ– تعريف المثل.

ب– مفهوم التواصل في نظرية الصلة.

٢– الدراسة التطبيقية: –

أ– تحليل حكاية الجاحظ (ما شابه أباه فما ظلم)

ب– الخاتمة.

*** تعريف المثل**

مفهوم المثل: الشيء الذي يضرب لشيء فيجعل له مثلاً، وهو ما يتعلق بما يضرب به الشيء من الأمثال، ويأتي بمعنى الصفة، فيقال مثله، أي صفته، كما يدل على معنى النظير .[1]

أما المثل اصطلاحًا: فهو يختص بجانب الشيوع الاستعمالي بين أفراد الطائفة اللغوية الاجتماعية، فهو يذكر متى فشي استعماله في الحال المشابهة، وهو القول السائر الممثل مضربه بمورده .[2]

فنستطيع أن نقول: إنَّ المثل يدل على التشابه بين الشيئين، بحيث يكون الأول هو الأصل والثاني هو الفرع، فهو بذلك يمثل حالة مشابهة لها لاحقة عليها، فيضرب الكلام الأول للمعنى المخصص في الموقف الثاني، وترى الباحثة أن المثل قد يضرب في قصة معاكسة لما قيل فيه؛ حيث إنَّ المثل الذي سنعرض له في هذه الورقة مرتبط بقضية مشابهة له معاكسة له في الصفة؛ حيث قيل هذا المثل استنادًا إلى حالة الكرم، ومثلنا مثل صفة البخل، والمشترك في الحالتين (مشابهة الابن لأبيه).

*** مفهوم التواصل الإظهاري الاستدلالي**

هو عملية تتطلب جهازين لمعالجة المعلومات، أحدهما يغير في البيئة الفيزيائية للآخر، والثاني يمثل ترميزًا مشابهًا للتمثيل في المخزون الأول، ويشمل محتوى التواصل المعاني والمعلومات والقضايا والأفكار والمعتقدات وفق ما أكده سبيربر وولسون .[3]

وتوضح لنا نظرية الصلة أن التواصل الإظهاري الاستدلالي شكل من أشكال التواصل، وطريقة لإيصال المعلومات، تتحقق بتزويد المتلقي ببينة أو بدليل مباشر، يمكنه من الإستدلال على مقاصد المتكلم[4]، فنظرية الصلة تزودنا بتفسيرات جديدة ومهمة لظواهر التهكم والاستعارة واللغة الشعرية وأفعال الكلام، ويتم الاعتماد على الاستنباط المنطقي المستفاد من استعمال الروابط المنطقية كواو العطف وإذا

---

1 - ابن منضور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت ، لبنان، ط٣، ج١١، ص٦١١.

2 - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، تح محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط١، ص٩٩.

3 - سبيربر وولسون،نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدارك، تح هشام إبراهيم عبدالله، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط١، ٢٠١٦م، ص٢٠.

4 - المرجع نفسه، ص٥٤.

وغيرها[5]، ولكي يتحقق التواصل الناجح فإن على المستمعين أن لا يكتفوا بالتعرف على المعنى اللغوي للمقولة فحسب، وإنما عليهم أن يستدلوا على معنى المتكلم منها .[6]

وفي نظرية الصلة نشير إلى أنَّ عمليات الإدراك أو المعرفة لدى البشر متوجهة نحو تحقيق أكبر قدر من التأثير الإدراكي المعرفي مقابل أقل قدر من الجهد المبذول للمعالجة؛ لذلك يتوجب على الأشخاص أن يركزوا انتباههم على ما يبدو لهم، فأن تتواصل يعني أن تطلب انتباه المخاطَب، والمعلومات التي يتم توصيلها ذات صلة (مبدأ الصلة)، فمبدأ الصلة جوهري وضروري لتفسير التواصل البشري[7]

أما بالنسبة لمفهوم السياق في نظرية الصلة فهو يشمل المعلومات الخاصة بالبيئة المادية المباشرة، أو التوقعات حول المستقبل، والفرضيات العلمية، والمعتقدات الدينية، والحكايات المخزونة في الذاكرة، والمعتقدات بشأن حالة المتكلم العقلية[8].

التواصل الإظهاري الاستلالي في تشبيهات المثل (من شابه أباه فماظلم): –

سأعرض لحكاية وردت في كتاب الحيوان للجاحظ، تضمنت قصة بخل ابن أرى أن هذا الابن ابتكرها ونسجها ، ومجريات هذه الحكاية جاءت من نسج الخيال الذي ينم على مدى بخل هذا الابن، وسأقوم بتحليلها، جاعلة الدائرة الواسعة تتألف من (الابن: المخاطِب / الأب والظيف : المخاطَب)، وفي الدائرة الضيقة (الباعة: المخاطِب / الابن : المخاطَب)، وأرى أن كلا الدائرتين متداخلاتان؛ لأني وجدت دهاء الابن وتفكيره ينم عن مدى بخله الذي أدى به أن يبتكر أحداثًا ليست واقعية؛ لإيصال مقصديته، والمتمثلة في عدم شراء اللحم، من خلال جعله بمثابة الماء الصافي، أما الدائرة الضيقة فقد حاول فيها الباعة جعل بضاعتهم من الأطعمة شيئًا قيمًا، لإيصال مقصديتهم، وهي بيع تلك السلع.

بإمعان النظر في التشبيهات الواردة في هذا المثل، وإذا ما تفكرنا في العملية التواصلية الإظهارية الاستدلالية، وتوظيف التشبيه في هذا المثل، فسنجد أنفسنا إزاء حالة بديعة يستثمر فيها النمط الكلامي في ايصال رسالة معينة للشخوص المعنيين، فالمتأمل في هذه التشبيهات يجد أنها رسخت معنى معين (البخل)، في ذهن المخاطَب، وهو معنى من المعاني المألوفة، ومن خلال الإظهار المتبادل أضحى هذا التشبيه راسخًا ومستقرًا في ذهن المخاطَب، إذا ما ربطه بسياق مشابه لهذا المثل وهو السياق الذي قيل فيه من قبل وهو الكرم وليس البخل، فنجد أنَّ هذا المثل يلتقي مع بيت الشاعر: –

بأبيه اقتدى عدي في الكرم ومن شابه أبه فما ظلم[9]

فالبيت جاء موافقًا للمثل العربي، وهو تضمين للشاعر ليبين أنَّ الكرم عند عدي ابن حاتم الطائي لم يختلف عنه عند أبيه، فقد شابه أباه حتمًا، فجاء بهذا المثل ليكون المعنى

5 - المرجع نفسه، ص٧.
6 - المرجع نفسه، ص٥٥.
7 - سبيربر وولسون، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدارك، مرجع سابق، ص ١٥.
8 - المرجع نفسه، ص٤٢.
9 - أنظر البيت بغير نسبه في الهاشمي، أحمد إبراهيم مصطفى ، السحر الحلال في الحكم والأمثال، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، د.ت، ص٩٨.

ألصق في ذهن المتلقي من المعنى العام في البيت، فالأمثال أكثر تعلقًا بأذهان الناس. [10]

من هنا نقول جاء سياق هذا المثل في سياق عكسي له، فسياق الكرم معاكس لسياق البخل، وقياس كرم حاتم الطائي وابنه يعادل مدى بخل هذا الرجل وابنه، فحقًا من شابه أباه ما ظلم.

والمتأمل في هذا المثل سيجد أنّ التواصل بشقيه الاستدلالي والإظهاري تحققا مما أظهره المتكلم، واستدل عليه المتلقي، فنشير إلى أن التواصل الاستدلالي بدا ظاهرا ومتحققا من خلال الصلة المثلى، فالتشبيهات التي تم إيرادها جاءت وسيلة مثلى؛ لتحقيق المقصدية والغاية المعنية، وجرى ذلك من خلال المقاربة بين المشبه والمشبه به، وكشف السمات المشتركة بينهما.

ونلحظ أن المشبه وهو (اللحم) كمشبه رئيس في هذا المثل، و(الزبد، والدبس) كمشبهين ثانويين، والمشبه به وهو (الزبد، والدبس، والماء الصافي)، جاء منبثقا من بيئة المخاطَب ومن إدراكه؛ من أجل أن يوصل للمخاطَب قصده، من خلال ربطه المعلومات الجديدة مع المعلومات.

صورة جعل اللحم بمثابة الماء الصافي: –

وقد تم إرسال هذا الخطاب من قبل المخاطِب وهو (ابن الرجل البخيل)، حيث أرسله بدلالات لغوية متآزرة، مستمدة من البيئة المَعيشة نحو:(الزبد، والدبس، والماء الصافي) في سياقات لغوية، وعن طريق تمثله لدائرة ضيقة بين المتخاطبين جعل من نفسه هو المخاطَب في سياقات: (سأعطيك لحمًا كأنه الزبد، وأعطيك زبدًا كأنه الدبس، وأعطيك دبسًا كأنه الماء الصافي)، وكل هذه الدلالات تظهر لنا حال ذلك اللحم الذي يريد شراءه، فهو زبد ثم دبس ثم ماء صافٍ، ومن معرفة المخاطَب لدلالة هذه الكلمات، نجدها أصبحت مدركة في ذهن المخاطَب.

وإذا ما دققنا في هذه التشبيهات نجد التشابه بين ركني التشبيه قائم، وحتى يدرك المخاطَب هذه المعاني يتطلب منه استحضار المعاني وإنشاء الصلة، وهنا نشير إلى أنَّ البنية المشكلة للتشبيه تسهم في تهيئة المخاطب لبناء التصورات الجديدة، فالتشبيه الأول مثلاً (سأعطيك لحمًا كأنه الزبد)، فاستخدام أداة التشبيه كمنبه إظهاري، ويساهم في الاستباط المنطقي وفق ما أكده سبيربر وولوسون [11]، حيث يجعل المخاطب يحلق في العنان؛ ليصل إلى معاني الزبد، ليربط بينه وبين اللحم، وكذلك ما يجمع الزبد بالدبس، والدبس بالماء الصافي، فكلها دلالات مستمدة من البيئة الإدراكية المادية للمخاطب.

فالزبد هو اللبن وعلاه الزبد، والجمع أزباد، وهو ما يعلو الماء وغيره من الرغوة عند غليانه، ويقال أزبدت الصبي أزبده، إذا أطعمته الزبد.[12]

وينبثق استدلال المخاطب على التشبيه كأنه (الزبد) فالزبد هو لبن أخرج زبده، وخص بالضأن، وقيل لبن مستخرج يطبخ به، والزبد هو العطية يقال زبدت الرجل:

10 ـ العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، جمهرة الأمثال، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ت، ج٢، ص ٢٨.

11 ـ سبيربر وولسون، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدارك، مرجع سابق، ص ٧.

12 ـ المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٤، ص٣١٥.

أعطيته، وتوظيف الزبد في قول رسول الله (إنا لا نقبل زبد المشركين)، يريد هداياهم، يسهم في تحقيق دلالة تدل على الشيء المعطى والمهدى، ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – خص زبد المشركين بعدم القبول، ونفهم أن زبد غيرهم مقبول، فتشبيه المخاطِب (الجزار) اللحم بالزبد يدل على مدى طراوته، والزبد في العادة يأخذ من الضأن الذي يعد أجود مصادره، كما أنه يدل على تولد شيء عن شيء، وهذه هي المقصدية التي ضمنها المخاطِب الرئيسي (ابن البخيل)، ومن خلال هذه التصورات يستطيع المخاطَب أن يوسع في السياق الجديد دلالات الزبد، فيسمح له بالمقارنة بين اللحم والزبد، فكأن اللحم شيء طري لين هظمه، وطعمه سلس لا يأتي إلا بالخير والفائدة، ونستطيع أن نهديه ونهدى منه ممن نحب ولمن نحب.

انتقالاً إلى التشبيه الثاني المستخدم وهو (الزبد كأنه الدبس)، فالدبس هو الكثير، دبس الشيء الأسود منه، وجاء بمعنى عسل المربى.

وتم استخدامه في لفظة الرب في قول عنترة العبسي:-

وكأن ربّا أو كحيلاً معقدًا حش القيان به جوانب قمقم[13]

فنلحظ أن عنترة استخدم الدلالة الإيجابية لهذه اللفظة عندما شبه العرق السائل من رأس الناقة بالرب أو القطران، وعرق الناقة يكون أسودًا في البداية؛ لذلك شبهه بهما، وإذا ما تأملنا هذا التشبيه نجد أنه ثمة دلالات مشتركة بين التشبيهين، فتشبيه الزبد بالدبس يبتدئ فيه المخاطَب بافتراضاته حول الدبس، وفي معنى الدبس العصير، وهو عصير قصب السكر إذا عقد وصار عسلاً، وكذلك الماء الرطب وغيره[14]، وأصل معنى الدبس هو السواد وهو الأسود من كل شيء، كما نقول دبس الشيء: الأسود منه، وجاءوا دَبْسًا أي جماعة كثيرة، مال دبس : كثير، ويقال للسماء إذا خالت للمطر دري دبس، والدبوس خلاص تمريلقى في سلاء السمن فيذوب فيه، وهي مطيبة للسمن[15]، فمن خلال هذه الدلالات يكوِّن المخاطَب افتراضاته حول الدبس؛ ليستدل من خلال ذلك بكثرة هذا الزبد، واللون الغامق له الذي يشي للمخاطَب بأنه أصلي غير مغشوش، وأن خلاصته تذاب وتعطي مذاقًا خلابًا لذيذًا وكل هذه الدلالات تؤدي إلى معنى جوهري تفترض من المخاطَب أن يجعل من هذا الزبد شيئًا مثاليًا نادر الوجود، له نكهة طيبة وشكل مثالي؛ حتى يوصل غرضه للمخاطب، وهو الشراء من الدائرة الضيقة.

أما بالنسبة لتشبيه الدبس بالماء الصافي، فيفترض المخاطَب بأن الماء الصافي سائل لا لون له، ولا رائحة له، وهو صالح للشرب[16]، ونستشف من قوله تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي) (الانبياء: ٣٠)، والماء السائغ الصافي يجري في الحلق بلا غصة، إذ ليس فيه خشونة الثقل ولا دسومة الدم، فهذه الافتراضات استدلالية تتوافق مع المشبه، والدلالة المنبثقة

13 - السقا، مصطفى، مختار الشعر الجاهلي، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، ٢١٤م، ج١، ص ٣٢٢.
14 - السبكي، تقي الدين الكافي، تكملة المجموع شرح المهذب للشيرازي ابي اسحاق إبراهيم بن علي، تحقيق عادل أحمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٧١م، ج١١، ص٢٨٥.
15 - البستاني، المعلم بطرس، محيط المحيط، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٧١م، ص٢٨١.
16 - معجم الغني، من موقع معاجم رئيسية http:\\www.maajim.com،

أن هذا الدبس خفيف غير مؤذ، لا تشوبه شائبة، ولا رائحة له، وصالح للشرب؛ من أجل أن يقق مقصدية بائع الدبس، وهي شراء الدبس.

فيبدو أن الابن أراد من خلال التفكير الواسع لديه أثناء حبك الحكاية أن يوصل للمخاطَب قصده في تحويل هذا اللحم إلى الماء الصافي، وانتقاله إلى الماء الصافي لابد أن يمر بمراحل وهي (لحم كأنه زبد، زبد كأنه دبس، دبس كأنه ماء صافٍ)، كما أراد أن يحقق مقصدية المخاطِب في الدائرة الضيقة وهي البيع.

بالنسبة للافتراضات التي ولدتها المنبهات الإظهارية في سياق الإخبار عن سبب شراء اللحم إلى جلب الماء، أو الماء الذي سيجلب من البيت في التشبيهات الثلاث، نجدها ذات درجة قوية الصلة؛ لأن تأثيراتها الإدراكية كبيرة، تتطلب قدرًا قليلاً من الجهد في المعالجة، فالمخاطب يستطيع أن يتصور محتوى التواصل الإخباري من المعلومات التي انبثقت عن عملية السلاسة في (تحويل شراء اللحم إلى ما يعادله وهو الماء الصافي)، ومن خلال تأثير المنبهات الإظهارية يستطيع المخاطَب (الضيف) أن يستدل على قصد المخاطِب، إذ إنها احتوت عناصر ترسخ جعل اللحم بمثابة الماء، من خلال ما ادعى ابن البخيل أنه أُبلغ به من قبل المخاطِبين (أصحاب السلع)، مقترنة باستدعاء التشبيهات التي تدل على جمالية وروعة ومذاق تلك المأكولات.

كل تلك المنبهات تحفز المخاطَب على الاستدلال على قدرة الفتى الرهيبة في التفكير، وشدة صفة البخل لديه؛ لأنه ومن وجهة نظر الباحثة المتواضعة ترى أنه استطاع أن يحبك هذه الحكاية بوقت لا نستطيع أن نقول: إنه طويل (فترة ذهابه للسوق)، وهذا يشير إلى مدى بخل ودهاء هذا الفتى، وإرجاع سبب بخله إلى أبيه، من هنا جاءت تسمية هذا المثل (من شابه أباه فما ظلم)، وإذا ما ربطناه بالسياق الذي قيل فيه، فسنجد أنه يطابق مقولة من شابه أباه ما ظلم سواء أكان ذلك في صفة البخل أو الكرم.

*** الخاتمة**

كشفت هذه الورقة البحثية لنا عن دور عنصر التشبيه الذي صدر من قبل المخاطِب، موظفًا له بالطريقة السليمة التي ساهمت في تحقيق الصلة؛ من خلال محاولة المخاطِب إيصال مقصدة للمخاطَب، ومساهمة المخاطَب في الاستدلال على كلام المخاطِب، وكل هذا ساهم في وصول المقصدية بتأثير كبير وجهد قليل.

كما ساهمت الدلالات المنبثقة عن (الزبد / الدبس / الماء الصافي) كمنبهات سياقية إظهارية مستمدة من بيئة المخاطب، في تحقيق قدر كبير من التأثير مقابل قدر قليل من جهد المعالجة، والذي أدى إلى يسر استدلال المخاطَب على مقصدية المخاطِب، والمتمثلة في الدئرة الكبرى (الابن / الأب والضيف) في جعله اللحم بمنزلة الماء الصافي؛ بهدف عدم جلب اللحم؛ نظرًا لبخل الابن الذي شابه أباه، والدائرة الضيقة المكونة من (الباعة/ الابن المشتري)؛ بهدف تجميل صورة الأطعمة المراد بيعها؛ بقصد جعل المخاطَب يشتري هذه البضاعة.

ووجد أنَّ للسياق دورًا فعالاً في تفسير المخاطَب (الضيف / الأب) للمتكلم فمعرفة المخاطَب للحكايات

المخزونة في الذاكرة، يشي ببخل هذا الابن؛ لأن أباه بخيل، وما شابه أباه فما ظلم قيلت في سياق الكرم، لتقال هنا في سياق البخل، فحقًا ما شابه أباه ما ظلم أمه في نسبة ابنها لأبيه.

*** المراجع**

القرآن الكريم.

أحمد إبراهيم مصطفى، السحر الحلال في الحكم والأمثال، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط١، د.ت.

البستاني، المعلم بطرس، محيط المحيط، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٧١م.

السبكي، تقي الدين الكافي، تكملة المجموع شرح المهذب للشيرازي ابي اسحاق إبراهيم بن علي، تحقيق عادل أحمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٧١م.

سبيربر وولسون، نظرية الصلة أو المناسبة في التواصل والإدارك، تح هشام إبراهيم عبدالله، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ليبيا، ط١، ٢٠١٦م.

السقا، مصطفى، مختار الشعر الجاهلي، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، ٢٠١٤م.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، تحقيق محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط١، د.ت.

العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، جمهرة الأمثال، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ت.

المصطفوي، حسن، التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مركز نشر آثار العلامة المصطفوي، إيران، طهران، ٢٠٠٩م.

ابن منضور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١٩٩٧،٣م.

معجم الغني، من موقع معاجم رئيسية، http:\\www.maajim.com